▫ ثالثا:

خطاب القومية والنبش في التراث المهمل

1/ 1/ 1* رغم اختلاف الأسباب والدوافع بين أبناء الأرستقراطية والبرجوازية، إلا أنهم توحدوا تحت خطاب ثقافي يحتفي بالبدائية والطبيعة من ناحية، ويقوده حنين إلي الماضي- من ناحية ثانية - يكمن في العصور الوسطي. لقد كان السواد الأعظم من البرجوازيين يلتمسون في نبشهم الآداب والفنون القديمة الجذور التي تسوغ خطاب القومية، ووظائفه الحيوية في توحيد أسواق المقاطعات وإلغاء الفروق المصطنعة بينها داخل سوق قومي. وكان الأرستقراطيون يجدون الملاذ الآمن في الماضي نفسه حيث تشكلت مكانتهم التاريخية التي استمدوها من الآباء والجدود الأول، التي تزين صورهم جدران القصور، وتحي ذكري الفرسان/ النبلاء الذين بنوا قواعد الإقطاع التي يقفون عليها، والأمجاد العسكرية التي يفخرون بها، وتملأ خزائن الذاكرة الفردية والعامة. والواقع أن خطاب الاحتفاء بالبدائية والطبيعية، كان ذا وجه أيديولوجي، وأسفر عن مجموعة المفاهيم والأفكار التي تعتبر قاسما مشتركا بين نظرية الميلودراما، والدراما الرومانسية، التي اتخذت اسم حركة «الدفع والعاصفة»، علي نحو ما شهدتها ألمانيا وقتذاك. ولعل أهم الأفكار أو المفاهيم التي تمخض عنها خطاب النبش في التراث الأدبي/ الفني- ولاسيما المهمل والمحتقر من منظور الثقافة والذائقة الكلاسيكية السائدة- مفهوم «العبقرية- Genius» التي تحتاج إلي مناخ من الحرية لتتنفس طليقة باتجاه تحقيق مجدها الأدبي في ظروف

غير مواتية غالبا، مكتسحة أمامها ما قد يناوئها من قواعد مفتعلة أو عقبات حولها في الوجود المادي.

1/ 1/ 2*إن مفهوم العبقرية علي هذا النحو، يمكن أن ينتقل بسهولة من حقل الإبداع الأدبي/ الفني والنقد إلي المجال الاقتصادي، حيث يكمن تحت مفهوم «العصامي- Self-made» الذي سيتردد في الأعمال الميلودرامية، ويعني به أقطاب البرجوازية العليا، ذلك الذي يبني مكانته الاجتماعية، ويكوّن ثروته من الصفر، منذ كان غفلا منسيا، بجهده وعرقه وذكائه في قراءة ما في السوق وما حوله من معطيات، وربما اكتسح أمامه الأخلاق، مع ما يكتسح من عقبات اجتماعية واقتصادية. كما أن المفهوم نفسه، يعضد فكرة البطل الرومانسي، بصفته الفارس الذي ينهل أخلاق النبالة القديمة، ويود لو استعاد مكانته السليبة في ظروف غير مواتية، ولو اقترن بالعصابات الإجرامية، وقطاع الطرق الجانحين أو المتمردين. والحقيقة أن مفهوم العبقرية يندمج في بنية كلية متماسكة، تستدعي فلسفة «الفردية- Individuality» التي أسسها «إيمانويل كانت»، فتبرر وتسوغ روح العصر، وإن تنوعت تجلياتها وتعددت مجالاتها، بين أصابع الأقدام وشعر الرؤوس!.

1/ 2/ 1*وفي هذا السياق لم يكن «روسو» شخصا مختلفا حينما تناول العقد الاجتماعي الذي يبني ما عده شرعية الحكم، ومحاسبة ومراجعة الحاكم، عنه حين يكتب الرواية أو يشغل بمسائل التربية، ولكنه الرجل نفسه بدوائر اكتراث متنوعة، تتكشف فيها البنية الفكرية نفسها. فقد كتب «روسو» أيضا في الآونة نفسها، «أميل أو التربية/ 1762»، ورواية «ألويزا الجديدة أو رسائل حبيبين / 1761»، وفي كليهما يدعو للعودة إلي الطبيعة، ويمجد الفطرة التي لم تفسدها ألوان التكلف، التي يضطر إليها الإنسان في المجتمع(1). ويضع الطبيعة- في

(1) انظر: د.مصطفي ماهر- شيللر/ حياته وأعماله- الهيئة المصرية العامة للكتاب- 1987- ص29.وانظر: د.فيصل عباس- الموسوعة الفلسفية/ ج5- مركز الرق الأوسط الثقافي- 2011- ص323.

مجمل أعماله- في وجه الحضارة، وفي وجه النزعة العقلية السائدة أقام عبادة متطرفة للعاطفة، وفي وجه المجتمع الفاسد وضع براءة ومثالية المجتمع البدائي(1). وهكذا افترق «روسو» عن المثل الأعلى الذي دانت له الأرستقراطية، ونفث عن غليله بإزاء نموذج ابن المجتمع المتحذلق، الذي يخضع فكره وسلوكه- وفق ما تستدعيه الأرستقراطية السائدة- لأنواع من التهذيب كالتي تخضع لها أشجار حدائق «فرساي»، لتلائم ذوق العصر، حتى أصبح الانفصال- فيما يقول «لافرين»- بين الحضارة والطبيعة عظيما إلي درجة أصبح معها كلٌّ منهما يتنافى مع الآخر تماما(2).

1/ 2/ 2* ولا غرو أن وضع «روسو» للطبيعية في مقابل «التحضر- Urbanism» و«التمدين-Civilization»، والعبادة التي لا تخلو من تطرف للعاطفة والشعور مقابل العقلانية، وللفطرة والسليقة مقابل الاصطناع والتكلف، والحقيقة والصدق «truth» مقابل «النفاق- Hypocrisy»، وإعلائه من شأن البراءة البدائية بوصفها مثلا أعلي، ما دعا إلي القول بأن الرومانسية الفرنسية تهب رياحها من روايات وأعمال «روسو»(3) وإلي دمجه ضمن الأصول الفرنسية في حركة «العاصفة والدفع- Storm and drag» الألمانية (4)، واعتباره- في الوقت نفسه- الأب الروحي للرومانسية الأوروبية(5). وفي نقطة التقاطع بين الميلودراما، والرومانسية الفرنسية التي التمست جذورها في حركة «الدفع والعاصفة»، يمكن أن نفهم القول بأن هذه الحركة نفسها كانت ضمن الروافد التي

(1) انظر: لافرين، يانكو- م.س- ص20.

(2) لافرين، يانكو- م.ن- ص12.

(3) انظر: د.حمادة إبراهيم- بانوراما المسرح الفرنسي/ الرومانسية- الهيئة المصرية العامة للكتاب- 2002- ص6

(4) انظر: د.مصطفي ماهر- مقدمة(جوته، يوهان فولفانج- جوتس برليشنجن ذو اليد الحديدية) - الهيئة المصرية العامة للكتاب- 1975- ص9.

(5) لافرين، يانكو- م.س- ص19.

نهلت منها الميلودراما الإنجليزية بجانب الميلودراما الباريسية ما بعد الحقبة الثورية [1]، والقول- في الوقت نفسه- بأن الميلودراما الفرنسية في آخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، كانت جزءً من فترة الأدب الرومانسي [2]. فقد كانت الطبقات الشعبية التي عنيت بها الميلودراما أصلا، هي المعاقل الحية للبداوة والفطرة أو الطبيعة في الريف وقيعان المدن!.

1/ 3/ 1*والواقع أن «روسو» لم يكن وحيدا في احتفائه بالبدائية وحياة الطبيعة والفطرة، والتنفيس عن الغليل من تكلف الأرستقراطية، ففي عقد الستينات نفسه من القرن الثامن عشر، يكشف أدباء ودارسون في انجلترا عن ولع مماثل، بما يعنيه من نبش في الجذور العرقية للشعوب الأوروبية، وما تفرع عليها من آداب وفنون مطمورة في أعماق الوعي والتاريخ، يرجى إحياؤها. فينشر «جيمس ماكفرسون/ 1736- 1796» مجموعة قصائد «أوسيان» أو «أوشن» منسوبة إلي شاعر من قبائل «الغال» في القرن الثالث، وقدمها مترجمة في كتابه (مقتطفات الشعر القديم/ 1760: 1763) باعتبارها من أقدم عصور أوروبا، فتحمس الناس لهذا الفن العظيم الذي أتيح للإنسانية من عصرها الأول، أيام كانت الفطرة تعيش في أحضان الطبيعة. ورغم أن البعض رأى هذه القصائد كشفا أدبيا لا تقدر قيمته بثمن، فقد رآها آخرون- مثل «صمويل جونسون- تزييفا خالصا. والراجح أن «ماكفرسون» جمع بعض القصائد والأساطير الغيلية، واستلهمها ونسج علي منوالها معظم ما قدمه. ولكن إن كانت لم تحظ - في حينها- باهتمام كبير في الأدب الإنجليزي، إلا أنها سرعان ما ترجمت إلي لغات أخرى كالفرنسية والألمانية، وكان تأثيرها في القارة الأوربية أعظم، فأثارت الاتجاهات الرومانسية، لما ميزها من العواطف السامية، وحب جارف للطبيعة التي ولدت في أحضانها، والميل إلي الأسى. وأدى انتشار قصائد «أوسيان» علي هذا النحو، إلي اعتبارها من أصول

(1) انظر: https://en.wikipedia.org/wiki/Melodrama

(2) انظر: http://study.com/academy/lesson/elements-of-melodrama-from-early-theater-to-the-modern-soap-opera.html

حركة «الدفع والعاصفة»، في ألمانيا(1)، وقيل إنها كثيرا ما أنشدت في ألمانيا وفرنسا، وتركت أثرها علي الرومانسية كلها(2).

1/ 3/ 2*وفي السياق نفسه من محاولة إحياء جذور الأدب القديم، يقدم الشاعر الإنجليزي «توماس بيرسي/ 1729- 1811» كتابه (آثار الشعر الإنجليزي القديم/ 1765) الذي تضمن مجموعة من القصائد والأغاني الفولكلورية، ومقطوعات من الشعر الغنائي التي ترجع إلي عهود قديمة(3). وفي الاتجاه نفسه مضى «روبرت وود» بمقاله عن «العبقري الأصيل» في كتابه عن (شاعر الملاحم الإغريقي «هوميروس/ 1769). وكذلك «إدوارد يانج/ 1681- 1765» بكتابه (آراء في التأليف الأصيل/ 1759) الذي أوضح نظريته عن «العبقري- Genius» الذي ينبغي أن ينطلق إبداعه كالعاصفة، متحررا من أي قيود(4)، مما مد الرومانسية وحركة الدفع والعاصفة الألمانية، بمفاهيم العبقرية والأصالة الإبداعية، التي تستند إلي الفطرة أو السليقة، لا التقليد وإتباع النماذج المصقولة، وفق التعاليم الكلاسيكية. ولكن إن كانت حركة «الدفع والعاصفة» بلورت الاهتمام بالطبيعة، والنظر إليها باعتبارها آية من الله، والاندماج فيها ضرب من العبادة، ودعت إلي تخليص العبقرية المبدعة من القيود لتكون حرة تنتج ما تشاء، فما أسهل- فيما يرى ماهر- الانتقال من مفهوم العبقري الحر والفنان الحر، إلي الإنسان الحر والفرد الحر، في وقت كانت مشكلة علاقة الفرد بالمجتمع

(1) انظر: د.مصطفي ماهر- شيللر/ حياته وأعماله- ص29. وراجع: ديورانت/ ويل- قصة الحضارة/ مج24- ت: فؤاد أندراوس- **مكتبة الأسرة**- الهيئة المصرية العامة للكتاب- 2001- ص173:176.

(2) لافرين، يانكو- م.س- هامش ص13.

(3) انظر: لافرين، يانكو- م.ن- هامش ص13، وأيضا: د.مصطفي ماهر- مقدمة (جوتس برليشينجن) - ص9.

(4) انظر: د.مصطفي ماهر- مقدمة(جوتس برليشينجن) - ص9.وأيضا:د.مصطفي ماهر- شيللر/ حياته وأعماله- ص29.

تغلي وتفور[1]، مما ينقل مفهوم العبقرية- في الوقت نفسه- إلي البرجوازي العصامي الذي ينطلق من قاع المجتمع إلي قمته الاقتصادية.

2/ 1/ 1*ولا شك أن الإقطاع في ألمانيا- حيث تبلورت حركة الدفع والعاصفة- كان أسوأ وأكثر حدة عنه في إنجلترا وفرنسا، فمزق البلاد بين مذهبين دينيين: البروتستانت والكاثوليك، وثلاثين إمارة متفاوتة القوة ومستقلة كل منها عن الأخريات، وقد يجري اقتتال بينهم في محاولة توسع، رغم الخضوع لقيصر في «النمسا». وهذا الواقع ما سوغ شعور كثير من الأدباء والمفكرين الذين جاءوا غالبا من البرجوازية الصغيرة، بعدم الرضا، وأرادوا من الأدب أن يكون عوضا عنه، أو أملا في تحسين أوضاعه والتغلب علي الحدود التي تفصل تلك الدويلات، فاهتموا- وفق«باربارا» و«بريجيتا»- بموضوعات وشخصيات تنتمي إلي الطبقة الدنيا من المجتمع، وأبدوا اهتماما جديا بالشعب والفن الشعبي بكل صوره، ففن الشعب ولغته هما اللذان يحفظان الوجود القومي[2]. وكان بين هؤلاء المفكرين، «يوهان جوتفريد هردر- Herder/ 1744- 1803»، بتأثيره العميق في حركة «الدفع والعاصفة» وصلته المباشرة بمن أنخرط فيها من أدباء وفنانين. فسرعان ما دمج «هردر» جهوده فيما بدأه الدارسون والأدباء الإنجليز بالنبش في التراث الأدبي القديم المهجور، أو توصيف مفهوم العبقرية، وأضفي علي الاتجاه جملة صفة القومية، فيعد- وفق «فيصل»- أول المفكرين الألمان الذين ظهرت لديهم النزعة القومية، وإن كان- خلافا لما فعله «روسو»- دحض فكرة التناقض بين الطبيعة والثقافة[3].

2/ 1/ 2*ورغم أن بعض الدارسين يعود بحركة الدفع والعاصفة إلي منتصف

(1) انظر: د.مصطفي ماهر- شيللر/ حياته وأعماله- ص29.

(2) انظر: باومان، بربارا& أوبرله، بريجيتا- عصور الأدب الألماني/ تحولات الواقع ومسارات التجديد- عالم المعرفة- الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- ع278/ فبراير2002- ص151

(3) د.فيصل عباس- الموسوعة الفلسفية/ ج5- ص368، ص372.

القرن الثامن عشر، ملتمسا ما لها من جذور إلا أن آخرين يرجعونها إلي عام 1767 الذي أصدر فيه «هردر» كتابين تبلور فيهما اسمها الذي تبناه أقطابها. أما الكتاب الأول فكان (الأدب الألماني الجديد)، ويتكون من كتابات غير مكتملة تحاول إعادة تقييم اللغة والثقافة في هذا العصر، ويؤسس لمفهوم أن اللغة هي روح الأدب لأي أمه، وأن من يكتب عن أدب بلد ما، لا ينبغي أن يغفل لغته. وكان الكتاب الثاني بعنوان (المقتطفات(1)). ويستأنف«هردر» جهوده حول العلاقة بين الروح القومية، ومثلث اللغة والثقافة والعرق، بكتابه (معالجة أصل اللغة / 1772)، الذي رأي فيه علاقة مباشرة بين تطور اللغة وثقافة السلالة البشرية وتطورها. ويجمع في كتابه (الأدب والفن الألماني/ 1773) كتاباته عن أدب ألمانيا بما يجعله برنامجا لحركة «الدفع والعاصفة»، واتضح فيه أنه تخلص نهائيا من نموذج الكلاسيكية الفرنسية وقواعده الصارمة، كما أن كلمة «ألماني» لديه كانت تعني كل شمالي وجرماني وشعبي أيضا. ويتجه في كتابه (أغنيات شعبية/ 1778 - 1779) إلي جمع الأغنيات الشعبية رغبة منه في إيجاد روح الشعب الأصيلة، وامتد أثر هذا الكتاب إلي الشعوب السلافية التي بدأ حماسها للأغاني الشعبية يشتعل، وقررت أن تبحث عن جذور أدبها(2). وفي السياق نفسه يأتي جهد «يوهان جورج هامان»، الذي اعتبر فن الشعر أصل اللغة، باعتباره اللغة الأم للجنس البشري(3).

2/ 2/ 1*ولكن الاهتمام المطرد بالأدب الشعبي وجذوره القارة في طبقات

(1) انظر: باومان، بربارا& أوبرله، بريجيتا- عصور الأدب الألماني/ تحولات الواقع ومسارات التجديد- ص150، وقارن: د.مصطفي ماهر- مقدمة (جوتس برليشينجن) - ص7،8.

(2) انظر: باومان، بربارا& أوبرله، بريجيتا- عصور الأدب الألماني/ تحولات الواقع ومسارات التجديد- ص150،151. وانظر: لافرين، يانكو- الرومانتيكية والواقعية- ت: حلمي راغب- حنا- الهيئة المصرية العامة للكتاب- 1995- ص13

(3) انظر: باومان، بربارا& أوبرله، بريجيتا- عصور الأدب الألماني/ تحولات الواقع ومسارات التجديد- ص150،151.

الوعي والتاريخ، وما إليه من إنسان طبيعي يعيش علي الفطرة ويتبع السليقة، فيما يأتيه بالقول أو الفعل، بوصفه إنسانا أرقي من ذلك الذي خضع للتهذيب والتثقيف وفرض هيمنة علي انفعاله أو سلوكه باسم الضرورة الاجتماعية، تحت قواعد الذوق الكلاسيكية، قد يبدو- وفق«ماهر»- مجافيا لعقلانية عصر التنوير، التي قضت علي الطبيعة وحولتها إلي مادة من شأن العلم(1). إلا أن الاهتمام نفسه - في الحقيقة- لا يعدو كونه امتدادا لعقلانية عصر التنوير وتأصيله الفلسفي لنظرية المعرفة، وبحث عمّ يؤكدها في عالم الواقع، ويفيد منها- في الوقت نفسه- علي أساس مبدأ النفعية في الأخلاق، في مجال السياسة وما تقتضيه من خطاب أيديولوجي. فإذا كانت نظرية المعرفة قامت في التجريبية الإنجليزية علي الحواس والتجربة المعاشة في الواقع، دون أن تنطوي علي أي أفكار مسبقة، إلا ما اندمج منها في الواقع وبات جزءا لا ينفصم عن الوجود المادي المعاش، فهذا الاهتمام أدى - وفق«ماهر» نفسه - إلي تعظيم ما يدركه الإنسان بحواسه، وخاصة المرئيات والمسموعات، وتحويل نظرة التاريخ إلي تتبع الأصالة والتماس ما كان علي الفطرة والسليقة(2)، إذا كانت الفطرة والسليقة تعني تجريد الوعي والوجدان من أثقال الأفكار الملقنة عمدا بعملية التعليم والتثقيف والتربية.

2/ 2/ 2* ومن ناحية ثانية، إذا كان الاهتمام في الفن بالفطرة والسليقة أدي إلي تقدير القدماء في كل الدنيا، كقدامى الإغريق وقبائل الجرمان، وفئات بعينها والتعاطف معها، كالأطفال الأبرياء، النساء الساذجات، القرويين، صغار الصناع وأرباب الحرف(3) فقد كشف الخطاب الفني والنقدي عن وجهه الأيديولوجي، وإن لم يقصد ذلك بصورة مباشرة. ولكن الواقع أن البرجوازية الصاعدة كانت بحاجة إلي خطاب سياسي، يستطيع تمثيل كل الأمة ويتجه إليها، ولاسيما تلك الشرائح والفئات المنكفئة علي وسائل الإنتاج في الحقول والمصانع، وطالما

(1) انظر: د.مصطفي ماهر- مقدمة(جوتس برليشينجن) - ص8

(2) انظر: د.مصطفي ماهر- مقدمة(جوتس برليشينجن) - ص8.

(3) انظر: د.مصطفي ماهر- مقدمة(جوتس برليشينجن) - ص8.

صادفت الإهمال والتهميش، ولو بتملقها، ليسهل تجنيدها ودمجها في لحظة التاريخ الحاسمة، لحظة الانفجار الثوري، نحو القضاء علي الأرستقراطية الحاكمة، وبقاياها الإقطاعية.

3/ 1/ 1*ولكن أبناء الأرستقراطية أنفسهم لم يكونوا بمعزل عن ظاهرة «الشعبية- popularity»، التي ولت الأعين نحو التراث الأدبي والفني القار في العصور الوسطي، ففي هذه العصور نفسها أمجاد أهليهم التي طالما فخروا بها، ونسبوا أنفسهم إليها، بصفتهم سلالة الفرسان النبلاء، أو نبلاء الدم والسيف، الذين أسسوا الإقطاع بين عبيد الأرض. ولا غروا أن يراودهم الحنين إلي الطبقة البدائية نفسها من الوعي والتاريخ، كلما شعورا أن الدهر يخونهم، ويسقطهم من عليائهم بأيدي العبيد أنفسهم الذين كانوا يسودون عليهم، ولاسيما أولئك الذين دانوا بالبروتسانتية، بين مذاهب الإصلاح الديني التي ولدها عصر النهضة. وفي هذا السياق لم تغز قبائل الجرمان روما وحدها، ثم تنصّروا، وطبعوا المسيحية- وفق ما يري «هردر»- بطابعهم، وأدوا إلي اتخاذ الصليب شكل السيف، وميلاد الإقطاع بنبلائه وعبيده، علي نحو يماثل البنية الكنسية بباباواتها وقساوستها من ناحية، وشعبها من الفلاحين أنفسهم من ناحية ثانية(□)، ولكن قبائل الشمال مجتمعة أحدثت هذا التغيير التاريخي، بمن فيهم «الفرنجة» الذين شكلوا جذور الشعب الفرنسي، ممتزجين بالسكان الأصليين. فكان الأدب الفرنسي أيضا حافلا- قبل سيادة الكلاسيكية في النصف الثاني من القرن السابع عشر - بالمبدعين الذين رفضوا الخضوع لنير العقل، واعتزوا بذاتيتهم وتمسكوا بأذواقهم الشخصية. وإذا كانت قصائد «أوسيان» مستمدة من تراث اسكتلندا القديم، وانتشرت بالترجمة في ربوع أوروبا، فلا غرو أن يعني الرومانسيون الفرنسيون - مع ثورتهم علي الكلاسيكية- ببعث تراثهم نفسه وإزالة الأتربة عن ذكرى أدبائه المطمورة في بطون التاريخ.

(1) انظر: د. فيصل عباس- الموسوعة الفلسفية/ ج5- ص371.

3/ 1/ 2/ 1*في هذا السياق، يلفت النظر في فرنسا، أن الأسماء البارزة التي عنيت بظاهرة الشعبية الثقافية وما تستدعيه من نمط حياة خشن ومنتج- بعد روسو واهتداء به- كانت من الأرستقراطية، وعلي رأسها الملك لويس السادس عشر الذي أطاحت به الثورة. فمما يذكر أن هذا الملك اكتسب الصحة والعافية بفضل سنوات الحياة الريفية والطعام البسيط، وأنه أعجب بمهارة الصناع الذين كانوا يخدمون في القصر، وآثر منافستهم في العمل بيديه، وأحب التحدث إليهم والعمل معهم، كما اكتسب شيئا من طباعهم وأسلوب حديثهم(1) وقيل إنه وافق «روسو» علي أن من واجب كل إنسان أن يتعلم حرفة يدوية، فتعلم عدة حرف من صناعة الأقفال إلي البناء، واحتفظ في غرفة بالقصر بكثير من أدوات الشغل. ورغم أنه كان ميالا إلي الاقتصاد في الإنفاق إلا أن كان من اللطف بما منعه أن يفرضه علي الآخرين، فكان يوقع بالموافقة علي مبالغ ضخمة استجابة لأمر الملكة(2). وبهذا اللطف نفسه لم يستطع الملك إغراء النبلاء بالحد من نفقاتهم ولا أن يجنح بهم إلي عمل نافع بسيطا كان أو معقدا. ومع أن السواد الأعظم من أمراء الإقطاع كانوا يعشون في ضياعهم الريفية ويزعمون أنهم يكسبون دخولهم بتوفير الإدارة الزراعية، ومراقبة البوليس والمحاكم والمدارس، والمستشفيات والأعمال الخيرية، إلا أن كل أولئك كان يقوم به- في الحقيقة- النظار، وعمّال من الحكومة المركزية، كما تركوا مساحات شاسعة من أراضيهم بورا في الوقت الذي يجوع فيه آلاف من سكان المدن لنقص الخبز.

3/ 1/ 2/ 2*ومع التعطل عن العمل، وتزايد الإنفاق علي نمط الحياة الترفي، لم يعد للأرستقراطية من نبلاء السيف والدم إلا شرف الخدمة العسكرية، وإن يكن بأسلوبهم العتيق الذي جعل السيف حلية بأكثر منه سلاحا. وبالرغم من ذلك أقنعوا الملك نفسه، بأن يحرم كل من لا تظاهره أربعة أجيال من الأرستقراطية،

(1) ديورانت، ويل- قصة الحضارة/ مج22- ص304.
(2) انظر: ديورانت/ ويل- قصة الحضارة/ مج22- ص322،323.

من جميع المناصب في الجيش والبحرية والحكومة. ولكن أناخ الفقر علي عدد غير قليل من أبناء هذه الطبقة، إما لنقص كفايته أو لسوء طالعه أو لأنه أرهق الأرض، وقد التمس أكثرهم معونة من الملك، أو تلقى منحة من خزانة الدولة، كما كان الملك مدعوا لدفع مهور بناتهم عند زواجهن، فقدرت نفقات القصر والحاشية والنبلاء بعُشر إيرادات الحكومة (1). ولكن نبلاء السيف والدم ورجال الكنيسة ونبلاء الرداء الوارثين الذين تولوا القضاء، وتحكموا في البرلمانات الإقليمية وفي العاصمة، أعربوا عن الكثير من آراء «روسو» الليبرالية، مما أدخلهم في صراع مع الملك باعتباره المدافع الأول عن امتيازاتهم التاريخية والفوارق بين الطبقات، مما مهد المناخ العام للثورة، وبالرغم من ذلك فقد انحاز أغلبهم خلال الثورة للنظام القديم (2).

3/ 2/ 1/ 1*علي هذا النحو، لم يكن ميل الملك إلي شيء من البداوة أو خشونة المعيشة، تعبيرا عن انحياز إيديولوجي للطبقات الشعبية، بما يملي عليه إعادة النظر في أوضاعها المعيشية القاسية، بل كان فقط ميلا شخصيا يكتسب منه الصحة والعافية، لا أكثر. واحتفظ طول الوقت بانحيازه إلي الطبقة التي انحدر منها، باعتباره المدافع الأول عن امتيازاتها التاريخية المتوارثة، وهو ما تجسد عمليا في مواقفه من نفقات الملكة، ودعم الأسر ذات الأوضاع الاقتصادية المتداعية من خزينة الدولة. وفي السياق نفسه، لم تكن الليبرالية، بالنسبة لأغلب أبناء الأرستقراطية، إلا شقشقة فوق ألسنتهم، وحلية في لعبة المناورات البرلمانية سواء أكانت في العاصمة أو الأقاليم. كما أن الدعوة إلي الطبيعية لم تكن تعني إلا علاقات جنسية إباحية، فطالما ظهرت في نمط حياتهم المترف فكرة الخليلة ومعاشرة العاهرات، حتى أن أميرا أصيب بالزهري، ومات بعد أن اعترف لزوجته بآثامه وبتفاصيل مقززة. وكانت «مدام دي باري»، خليلة لويس الخامس عشر،

(1) انظر: ديورانت، ويل- قصة الحضارة/ مج22- ص439:437، وراجع ص312،311

(2) انظر: ديورانت، ول- قصة الحضارة/ مج22- ص310.

أشهر سيدات العصر وأكثرهن نفوذا، حتى قيل إن الملكة «ماري أنطوانيت» كانت تتجنب الحديث إليها في بدء عهدها بالقصر الفرنسي، إما اشمئزازا من أخلاقها أو حسدا علي نفوذها، وبرغم ذلك لم تنج الملكة نفسها من التكليل بسمعة مماثلة.

3/ 2/ 1/ 2* لقد غرقت «ماري انطوانيت» في نمط الحياة السائد حولها بما انطوى عليه من تبذير وإسراف علي الثياب، المجوهرات، القمار، الحفلات تنكرية، والعشاق علي نحو وصف بالطائش ربما بدافع الإحباط في علاقتها بالملك الذي ظل عنينا لفترة طويلة، ولم يغتفر لها الشعب تبذيرها المفرط من ضرائبه. أما الجانب الذي قيل إنه يستكمل في حياة الملكة حلم «روسو» في العودة إلي الطبيعة، فيتمثل في أنها أمرت ببناء أكواخ لأصحابها علي مقربة من قصر «تريانون» الذي أهداها الملك، وخططت الحدائق المحيطة علي النمط الطبيعي وأقامت ثمانية مزارع صغيرة لكل منها كوخ ريفي وأكوام السباخ، والأبقار والأسرة التي تفلح فيها، وكانت تلبس كراعيات الغنم عباءة بيضاء ومنديلا من الشاش، وقبعة من الخوص!. ولكن النزعة إلي الطبيعية وبساطة البداوة لم تكن إلا التماس لفترات ترويح مغايرة لقتل الملل، ولذا لم تقوّم في الملكة نبلها المسرف، فكانت تحب أن تري اللبن يحلب من خير الضروع في آنية فخمة! ولم تقض علي حياة اللهو التي أدت إلي خوض العامة في سيرتها، ونشر كراسات شعبية قيل أنها بتحريض من بعض الحاشية، فنالت من شرفها بصفتها خليلة لكل ذكر في القصر، ولم تعفها من الارتياب في نسبة أبنائها للملك، الذي فرح بهم وباستعادته ذكورته في الفراش(1).

3/ 2/ 2/ 1*وإلي جانب نمط الحياة الترفي والمتحلل من القيم الأخلاقية، كان نبلاء فرنسا ورجال الكنيسة يعيشون فعليا- حين هبت عليهم رياح الثورة العاتية- علي بقايا علاقات الإنتاج الإقطاعية ويأبون التخلي عن امتيازاتهم

(1) انظر: ديورانت، ويل- قصة الحضارة/ مج22- ص312:320.وانظر ص308.

التاريخية التي تعفيهم من الضرائب(1)، مما أسهم في إشعال فتيل الثورة. وحاول بعضهم في ظل الثورة الإفادة مما أنتجه مفكرو البرجوازية من مفاهيم «الليبرالية – liberalism»، لاكتساب حق التعبير عن الرأي والبقاء في دائرة التأثير علي القرار السياسي، والاكتفاء في الإصلاح- من ناحية ثانية- بإضفاء طابع دستوري علي الملكية الحاكمة باعتبارها مناط الشرعية، التي يتمنون عودتها، فتولدت نقاط الصدام، التي لم تخل من دموية بينهم وبين الثورة. وفي نقاط الصدام الحادة التمسوا النجاة بدءا من «دارتوا»، أخي الملك الأصغر، وهربوا إلي البلاد التي ناصبت الثورة العداء، وبخاصة إنجلترا وألمانيا(2)، حيث انخرط بعضهم في

(1) رغم أن الملك أصدر قبل الثورة مرسوما بتحرير الأقنان في أرضه، إلا أن كثيرا من الكنائس والبرلمانات الإقليمية أبت أن تصدق عليه والإقتداء بالملك، فلما أصدر الملك مرسوما بإلغاء حق المالك في مطاردة الأقنان الآبقين خارج أملاكه، نال كثير من الأقنان حريتهم بالهرب من الأرض. ولكن بقي أغلبهم خاضعا لحق أو أكثر من الحقوق الإقطاعية: مضاعفة إيجار الأرض السنوي، رسوم التوريث لأبناء الفلاحين، أجر استغلال مطاحن السيد ومعاصره وبرك أسماكه، مطاردة فرائسه في أراضي ومحاصيل الفلاحين، تسييج الأرض المشاع التي يحتطب منها الفلاحون، دفع ضريبة الإعفاء من السخرة، العمل مجانا في الأرض وصيانة الطرق البرية والجسور والطرق المائية لأربعة أو ثلاثة أيام في الأسبوع..الخ، وهذه الحقوق أخذت من الفلاح عُشر دخله، فإذا أضيف إليها ضرائب الدولة وما يدفعه نظير الخدمات الكنسية، لم يبق له إلا نصف كده. انظر: ديورانت، ويل- قصة الحضارة/ مج22- ص439،440.وانظر: فيشر، هـ.أ.ل- تاريخ أوروبا في العصر الحديث- القاهرة- دار المعارف- ط8/ 1984- ص5،6.

(2) هرب كثير من النبلاء الفرنسيين إلي مناطق مختلفة من الأراضي الألمانية والنمساوية، ونظموا حركة مقاومة للثورة، ووجدوا آذنا صاغية من الأمراء الذين خشوا أن تمتد عدوي الثورة إلي إماراتهم، بينما كانت النمسا علي رأس المهتمين بمناهضة الثورة خاصة وأن«ماري أنطوانيت»، ملكة فرنسا، ابنة«ماريا تريزا»، رأس البيت الحاكم في النمسا. وفي السياق نفسه عمد مفكرون إنجليز أمثال«جون بيرك»، إلي كتابات تحريض تنفر من الثورة وترغب في التطور التدريجي، ما لبث أن انتشرت بين الناس ووجدت صدى لدي فئات من المثقفين، خاصة بعد عصر الإرهاب وإراقة الدماء الذي أكلت الثورة فيه بعض أبنائها.انظر: د. مصطفي ماهر- شيللر/ حياته وأعماله- ص32. بل ربما رجعت الكوارث من إعدام الملك والملكة، وجنون الشك والريبة، والإرهاب وقمع الآراء المعتدلة، إلي المخاوف التي أثارها حقد المهاجرين الدفين وقوة حلفائهم المسلحة سواء في الداخل أو الخارج. انظر: فيشر، هـ.أ.ل- تاريخ أوروبا في العصر الحديث- ص14.

مقاومة الثورة، مما أسفر عن مناخ الإرهاب والريبة في فرنسا. وكان المناخ في بلدي المنفي والمهجر مهيئا- علي مستوٍ آخر- ليتأثر بعضهم علي الأقل، بظاهرة الشعبية الثقافية السائدة هناك، واستعادة بعض مما فقده «روسو» من بريق، سواء صدقا أو ادعاء، ليخفوا انحلالهم القديم في ثوب الطبيعية الذي يدفع بالثورة إلي التماس تعاطف الطبقات المطحونة في الريف والمدن.

3/ 2/ 2/ 2* وعلي أية حال، فإن هذه البنية المجتمعية، بما انطوت عليه من ثنائية في نمط الحياة الذي تبنته كل من الطبقتين: الأرستقراطية، والبرجوازية، تعود لتفسر البنية الدلالية العميقة التي كمنت تحت التنويعات الممكنة في كل من الدراما الرومانسية الإنجليزية والفرنسية، وجذورها في حركة الدفع والعاصفة، والميلودراما. ويزداد التجاوب بين البنيتين وضوحا وجلاء، كلما انطوت البنية الدرامية هنا وهناك، علي شخصيات من كلى الطبقتين، واخترق نمط الحياة الأرستقراطية تخوم الشرائح الشعبية بالقسوة أو علاقات العشق والغزل والنزوع إلي الإشباع الجنسي، مما يولد الضحايا المقهورة أو المغتصبة. ولكن إن أبدى الكاتب الرومانسي نوعا من التسامح الأخلاقي مع مفهوم الخليلة، الذي يشيع في البلاط الملكي وقصور النبلاء، فكاتب الميلودراما لا يتسامح معه، بل علي العكس يتكئ إليه كثيرا، وينطلق في خطبة عصماء ضده، وربما اعتمد عليه- من ناحية ثانية، ولاسيما في مرحلة الهياج الثوري- لتأسيس انتفاضة جماعية من الطبقات الدنيا، ضد نبيل القصر الذي اغتصب بنتا من بناتهم، باعتباره الشرير الذي يرجى الخلاص منه!.